IJEL

International Journal of Education and Language Studies

ISSN: 2791-9323



Lamisse LARBI OUIS[1]

THE SPATIAL STRUCTURE IN THE PRESENCE OF THE DARWISH POETIC TEXTS

Istanbul / Türkiye

p. 45-54

Article Information

Article Type: Research Article

This article was checked by **iThenticate** No **plagiarism** detected

Article History

Received: 16/07/2022
Accepted: 07/08/2022
published: 01/09/2022

Abstract:

The poetic arena witnessed the progression of a theme that dared at paces that did not yet know the pace, reluctance, stammering, and the heavy lines of poetic fingertips poured out rattles of words that were not like words, I read in the vault of poems, announcing a victory, emerging from marginal shackles that were sluggish and prolonged, to a louder flight. A theme that became famous in the horizons of the poetic field by the name of the place.

The technology of the place took its place in the spaciousness of the poetic milieu, and it was an obsession for the poets' mood, and they reached the bondmen and the plot of the association with the glosses of their poetic text, how not and the place is the source of existence, the hotbed of the past and the theater of memory, and as we turn the pages of Darwish poems we witness spatial whiffs that departed from the stage of the crouching al-Iknan to the Fattouh edifice. Al-Muton and we feel invoking the place of Abu Al-Attar, the intensity of its frequency, striking the presentation of the verses, in a sublime flight of escape, came to the door of poetry to win Hayam Darwishi, who threw him in his experiences loaded with anthropological charges that bound the memory of the past with the present, so the place rebelled from its physical place into a space that knows no bounds a place, regardless of the place The illusory geographical boundaries to the ecstasy of a long-awaited predecessor, a spatial presence that established its dramatic tendency par excellence and directed its lense he aimed at reality to capture close-up scenes with a clear vision that canceled the camouflage.

The poet Mahmoud Darwish tweeted a place in the presence of his poems, why not, and the place is nothing more than having Khalil solitude, Anis solitude, and Anis loneliness. Bahia Lammt between its covers, deep meanings, deep concepts, pulsating with a resounding voice, insisting on his eternal process, which foretold his immortality in the collective memory. Darwish adopted the place in his poetry with an eagerness to evoke it, as we encounter it in his poem right and left, laden

http://dx.doi.org/10.47832/2791-9323.8.5

[1] Researcher, University Oran1 Ahmed ben bella , Algeria, larbiouislamisse@gmail.com

with an abundance of interpretations that remained in contact with a delicate line of feeling in which reality fused with imagination, so the place became an elixir on the throne of poetic experiences expressing the hidden feelings, how not, and it is the only refuge and the first affiliation and The established entity must have its memory inevitable in the presence of absence.

Key words: Place, Poem, Poetry, Drama.

البنية المكانية في حضرة المتون الشعرية الدرويشية

لميس العربي ويس [2]

الملخص

شهدت الساحة الشعرية تقدم ثيمة تجرأت بخطى لم تعرف بعد الإقدام إحجاما طارقة واغل أسطر منّت عليها أنامل شاعرية ضخّت غدف كلمات ليست كالكلمات قرّت سرداب القصائد معلنة تسيدا انبرى من أغلال هامشية تقاعست و طال أمدها إلى تحليق جاهر استتب عليله سماء الشعر و هبّ مدرارا فسيح القصائد، ثيمة ذاع صيتها في آفاق الحقل الشعري بمسمى المكان.

حطّت تقنية المكان رحالها رحب الوسط الشعري، فكانت هاجسا راود سجية معشر الشعراء ووصلا مكين الآصرة وكيد الرابطة بإلماعات متونهم الشعرية كيف لا و المكان مبعث الوجود مرتع الماضي ومسرح الذاكرة، و نحن نقلب صفحات القصائد الدرويشية نشهد نفحات مكانية خرجت عن طور الإكنان الجاثم إلى صرح فتوح المتون و نستشعر استحضارا لمكان أبى الاستتار تعالت حدة تواتره ضاربة عرض الأبيات في رحلة هروب سامية نأت باب الشعر لتظفر بهيام درويشي ألقى به في تجاربه محمّلا بشحنات أنثروبولوجية صفدت ذاكرة الماضي بالحاضر، فتمرد فيه المكان عن مكانه الفيزيقي إلى حيّز لا يعرف للحصر مكانا صرف النظر عن الحدود الجغرافية الوهمية إلى نشوة سالفة حنية، حضور مكاني رسّخ نزوعه الدرامي بامتياز ووجّه عدسته صوب الواقع لالتقاط مشاهد عن كثب برؤية جلية ألغت التمويه الحاصل.

غرد الشاعر محمود درويش مكانا في حضرة قصائده لما لا و المكان لا يعدو أن يكون عنده خليل خلوة، و أنيس عزلة، و ونيس وحدة انعتق خلسة من أسر الخارطة إلى متناء فتح خناق المغاليق ليغدو رمزا يحمل من الدلالات أعتقها و من الإيحاءات أسماها في حلة شعرية بهية لملمت بين دفتيها عميق المعاني غائر المفاهيم نابضة بصوت مدوي ألح على سيرورته الأزلية التي أنبأت عن خلوده في الذاكرة الجمعوية . تبنى درويش المكان في شعره بلهفة التزمت استحضاره ؛إذ نصادفه في قصيده يمنة و يسرة محمّلا بفيض تأويلات ظلّت على اتصال بخط شعوري مرهف انصهر فيه الواقع بالخيال، فغدا المكان إكسيرا استوى عرش التجارب الشعرية المعبّرة عن مكنون المشاعر كيف لا و هو الملاذ الوحيد والانتماء الأول و الكيان الراسخ لازم ذاكرته لزاما لا مفر منه في حضرة الغياب الراهن المرغم.

الكلمات المفتاحية: المكان، القصيدة، الشعر، الدراما.

المقدمة:

يتناول هذا المقال عنصرا مهما من العناصر التي توجت رأس المصنفات الأدبية أيا كان جنسها ألا و هو المكان نظير إسهاماته الكبيرة في خلق تواصل بين العمل الأدبي و متلقيه تحت وطأة دلالات لا متناهية كما تسعى هذه الدراسة على وجه الخصوص إلى توجيه العدسة صوب قصائد الشاعر محمود درويش وسط زحمة معشر الشعراء المحدثين و المعاصرين منهم لتصوير مكان طغى حضوره بيت قصيده، و لعل المتفحص لنصوصه الشعرية يلحظ تكثيفا للمكان بل بات سمة لصيقة به لأنّ ارتباطه بأرضه كان وثيقا لا فكاك منه فكان بالنسبة له أم البدايات و النهايات معا و ضرب خلق في جعبته لقاء يجمع بين حاضر و ماض اشتد عليه الشوق مكانا جعل الشاعر على بعد أمتار من واقع عاشه كان له وقع على ذاكرته و ترسخ و أمر نسيانه استحالة لا محالة لذا كانت مغالبة قلمه للمكان كحلم يراوده آناء الليل و أطراف النهار و باتت تتربص به كسكرات موت يحتضر صاحبها وجدت مخبئا دافئا في أنفاسه الأخيرة، و لابد أن المكان كان تحت وصاية الشاعر كيف لا و نحن نجد حبر يتدفق مكانا على ورق، مكان ضم في ثناياه العالم بأسره عبّر به عن تراكمات دفينة اختلجت و عن جثمان عميق استقر لا يخلو من مشاعر مرهفة أفلتت زمامها، و صوّر مواقف عن كثب ألغت رتابة الحياة في موضع احتضنه سلفا و أضحى يطارد خياله اليوم باستحضار استنجد بذاكرة الماضي و الغياب الكامل يستتب حرمة الحاضر و لا يزال يضخ مكامن النفس بأفكار هوّن عليها تصور حضور غيابي لتبقى على قيد الوجود الحالم عنوة بعد أن منّ عليها صرح خصب ناضل للمكوث في الذاكرة حينا طويلا، فبالمكان عاد إلى الوراء ليلتقط صورا في تراجع

[2] د. ، جامعة وهران1 أحمد بن بلة، الجزائر، larbiouislamisse@gmail.com

اصطدمت به مشاهد الماضي بوقائع الرهن يتنامى فيها الجمال حينا و الوصف حينا آخر في مساحة يغدو فيها المستحيل ممكنا و المكان يصبح أرضا تنبض معاني و أبعاد و مدلولات قهرت صمات ألم الأمر الذي دل على رحابة الرؤية الدرويشية المبدعة التي شكلت منعطفا حافظ على الهوية، و رائحة التراب، و أصالة الأرض في عنصر المكان الواحد.

المكان في شعر محمود درويش:

كان للمكان سلطة على منجز درويش الشعري لأنه يمثّل الانتماء العربي و الهوية استطاع أن يغطي عمق التجربة الفعلية أسطرا شعرية سمتها حركية بفعل شاعرية البنية المكانية لأنها تخطت حدود مسافة الجغرافيا الوهمية إلى كينونة حسّية حولت طللا أصم و حجرا أبكم ملاذا نابضا ألغى منطق تحجّر متجذر ليصبح هوس تعلق تعالت وتيرة الهواجس فيه يقول الشاعر محمود درويش :

"و غزّة لا تبيعُ البُرتقال لأنّه دمُها المُعلب

كنتُ أهربُ من أزِقّتها

و أكتبُ باسمِها موْتي على جميزة " 1

أورد درويش في مستهل القصيدة مدينة غزة جرح فلسطين النازف و مخبأ الألم مدينة انفجرت فيها الدماء و قتل فيها الأبرياء، ففي المقطع إشارة إلى تعمّد الكيان المستدمر هدم الأزقة و ردمها بلا وازع و لا نازع كي يصبح المجاهد في سبيل الله و في سبيل وطنه ضحية مكر الماكرين، فبات الفدائي الفلسطيني يقاوم عدوه اللدود و يغالب رصاصاته و قصفه المتتالي في أحياء غزة بشيء كالمعجزة، فكانت غزة أنذاك تتصدى الهجمات و تقاوم السكرات حتى لو بلغ طغيان الاحتلال أشده لأن بإمكانها قهر الفناء بمكابرة البقاء إلى أن يرث الله الأرض و ما عليها بمقاومة هزّت سلطان من لا سلطان له و المتشبث بأكذوبة حائز مكان صدق زورها لا غير، فلا مكان لمن ليس له مكان الأمر الذي حزّ غل سنين مكبوت قنابل تمطر مدرارا سماء غزة لتحصد أرواحا بريئة منزلتهم شهداء جرمهم الأوحد ذوذ أريج التراب الطاهر، فما أعظمها من جناية ينتقل فيها الشهداء من درك الحياة إلى جنّات الخلد السامية .

سطّر محمود درويش لمدينة القدس شذرات ألمعية شعرية من نوعها على الرغم من استغلاق صنوها إلا أنها تروم نحو متناء دلالات بلغت من السناء ما عداه يقول الشاعر في هذا الشأن:

"وما القدسُ و المدنُ الضائعة

سوى ناقةٌ تمتطِيها البداوة

إلى السُّلطة الجائعة و ما القُدس و المُدن الضائعة

سوى منبرٌ للخَطابة

و مستودعٌ للكآبة

و ما القدسُ إلا زجاجةُ خمرٍ و صندوق تبغٍ

....و لكنّها وطِني...."2

بما أن المكان عنصر رئيسي من العناصر الدرامية و رمز إنساني قادر على استيعاب التجارب و المواقف يعبّر عن هوية شعوب في قالب أدبي صمّم الشاعر على عرضه في صرحه، فقلما يتنكب هذا المظهر في قصائده لدرجة أنه آض سمة درويشية نستشعر غيابها لحظة انتياص مؤقت كما نستشعر حضورها الأثيث بين الفينة و الأخرى فما أسماها من عيّنة توث عرض المتن بشكل مكثف لم يرض القلّة في حضرة الثلّة، فنجد الشاعر يوظف المكان القدس أكثر من مرة كيف لا و القدس زهرة المدائن و أقدس الأماكن و مهبط الأديان السماوية كافة أولى القبلتين و ثالث الحرمين الشريفين استدعى حضورها بصورة طاغية.

اقتحمت مدينة القدس الشعر الدرويشي بخطوات تريث مضيها متجنبة المنحنيات العاثرة في صورة من لدن أنامل واعية لواقع معيش في طلعة تضارب ثيمات المنفى، الأسى، المعتقل في مشهد شعري فوتوغرافي من زاوية رمقه صنعت آصرة بين القدس و بابل في منعطف إكنان اختار خلسة الهيئة أونا ثم صات:

"يا أطفالَ بابِل

يا مواليدَ السلاسِل

ستعُودون إلى القُدس قريباً

و قريباً تكبُرون

و قريباً تحصدُون القمحَ في ذاكرةِ الماضي

قريباً يصبحُ الدمعُ سنابل

آه يا أطفالَ بابِل "3

نلمح بين السطور نورا يشع لفضاء مكاني يدعى القدس يسطع سناء و يذرف أملا، فالشاعر وجه عدسته نحوها، و صوب إليهاكل المبالاة التي فاهت بنبرة صليل الصوارم بلهجة التيمّن و الفأل توارت تحتها شحنة تكوّمت شحنات كدر و كمد لن ترضخ للدحر و الخيبة مهما بلغت حدته مادام التشبث قائما وبصيص الأمل موجودا يتجرعون به غدا له ميعاد تلاق حتمي مع القدس، فأسير اليوم طليق الغد وأطفال اليوم المعتقلين رجال الغد الأحرار، و الأوبة إلى المثوى الأم أكيدة لا شية فيها لأن التوق اشتد والشوق احتد، فلا مجثم بعد الوطن و لا مكان بعد القدس، فالشاعر استبشر خيرا بعد فترة ضير و رأى في الجيل الصاعد تداني مرحلة انعتاق هو حامل لواءها و رافع شمعدان مهجة المستقبل له مكنة تبوأ مسؤولية بقاء كلّفه بها الخلف و تركها ميراثا للسلف الغطريف في زمن بغى فيه الحائف العاسف فقط ليدثره بوشاح امتثال و يدخله في موقعة الفناء لكن محمود درويش ألفى في هذا الجيل ذلك الشيء من الأمل و البشر له منعة ترجع القراح إلى مجاريه و الحياة إلى سابق عهدها في ومضة عناق الحاضر الأمل و البشر له منعة ترجع القراح إلى مجاريه و الحياة إلى سابق عهدها في ومضة عناق الحاضر بالدابر بعد بين سنين عن الملاذ و ذكريات النبذ و التنحية و النفي الإجلاء تنهمل في حضرة غياب مناقب ستنتهي صلاحيتها يوما مادام دم النخوة و الأنفة و الحميّة يجري في شريان الفلسطيني جيناتا متوارثة، فالشاعر إذن سلّم مهمّة استرداد الوطن للجيل القادم لأنه عثر فيهم على المخلّص و المنقذ من الانغماس الغميق في نوفل الخنوع الأدهم .

كانت مدينة دمشق محل اهتمام الشاعر حيث أذن لخياله بانكفاء إلى حقب سالفة حشدت قواها لالتقاط عهيد القطوف لعتيق المدن في لحظات خاطفة ألق بها النزوع القومي طريحة بث أفشاه في قوله:

"في دِمشق

تسيرُ السّماء

على الطُرقات القديمة

حافِية حافِية

فما حاجةُ الشعراء

إلى الوَحي

و الوَزن

و القَافية" 4

استطاع الشاعر محمود درويش من خلال هذه الأبيات الشعرية خلق جو شعري يتفاعل فيه مع مدينة دمشق و يعيدنا بالزمن أدراجا إلى الوراء في تراجع مندفع و يسترجع ذكريات لربما تكون في عداد النسيان عن مدينة الأدب و العرب يتلفظ درويش دررا دمشق الموروث و التاريخ و الحضارة التي تخطت رواء الأوصاف أعتق عواصم العالم فيها من الثقافة أرقاها، و من الفنون أسماها، و من العلوم أدقها وجهة متعطش الفقه و طالب العلم مدينة نصّبت علياء المدن تاريخا و حضارة و تراثا يريد الشاعر من خلال حضورها في أسطره التركيز على قيمة دمشق، قيمة تعكس أصالة المجتمع

العربي كيف لا و دمشق مرتع للشعر و الشعراء، و مربع لميلاد نوابغ الأدباء، و مثوى نهل و نهم تتدفق فيه سجية الشعراء كلاما منظوما انصهرت فيه الفصاحة بسميرتها البلاغة في حضرة عفوية السليقة تخلو من قيود الوزن و القافية التي كبّلت أنامل الشعراء أمدا .

التجربة الدرويشية كانت تصبو إلى إقحام المكان بين الفينة و الأخرى لأنه لبنة درامية من الطراز الأوّل عبرت عن ذات شاعر في واقع تجردت فيه الماديات كيف لا و" المكان عنصر يرافق الإنسان منذ نعومة أظافره إذ يرجع له الفضل في احتواءه و اشتماله منذ وجوده"5 لهذا وجد فيه ترجمة لرؤية شعرية لم يهيأ انطلاقها و توارت خلف منظومة الكتمان اللائق بعد كبح جماح باطن و حرمان تحفّظ بوح دسائس لم تتجرأ منطق العلنية، ها هو المكان ينتزع اللجام ليفسح عن فضاء رحب ذروة الشاعرية و عكس صورة كسرت حواجز إمكانية المحدودية القائمة على حدود جغرافية، فالشعر انسيابي لا يخضع لأطر التقوقع المتقوقع الثابتة بل إنه تجاوز حتى تصوّر المرئيات الجامدة إلى ما هو أسمى من ذلك بكثير من خلال قفزة أزالت عتمة الرتابة الدامسة إلى التحام المكان بالمشاعر، فقد سكن سجية الشاعر و لم يخرج عن حيّز تفكيره البتة و خير مثال على ذلك قصيدة قال فيها:

لا تقُل لي

ليتني بائعُ خبزٍ في الجزائر

لأُغنّي مع ثائر

لا تقُل لي

ليتني راعِي مواشٍ في اليمن

لأُغنّي لانتفاضاتِ الزمن

لا تقُل لي

ليتني عاملٌ في مقهى هافانا

لأُغنّي لانتصاراتِ الحزانى

لا تقُل لي

ليتني أعملُ في أسوان حمّالاً صغيرٌ لأُغنّي للصخور

يا صديقي

أرضُنا ليست بعَاقر

كلُّ أرضٍ و لها ميلادُها

كلُّ فجرٍ و له موعدٌ ثائر" 6

أول ما يصادفنا في هذه القصيدة توظيف المكان؛ إذ نجد شعر محمود درويش يحلّق سماء الجزائر فحضوره دل على رحابة رؤيته الشعرية التي ألغت أسوار التقوقع، فتجاوز حدود خارطة وهمية بفلسفة مكانية أفلت إلى انتماء قومي واعي و بهذا أعلن عن ميلاد التزام بقضايا الأمم العربية، فاعتنق واقعها وندّدت إبداعاته دائما بموقفها الداعم للعالم العربي ككل و الجزائر على وجه الخصوص التي كانت محل استقطاب الشاعر، فتغنّت أبياته بثورتها انتماء و كأنّ انتصار الجزائر و خلاصها من حبل المشنقة انتصار لفلسطين كذلك، فهي بالنسبة له أنموذج ثوري تصدى للمستدمر وخرج من مستنقع الجور، فالجزائر مكان ليس ككلّ الأمكنة انتسب إليها بكل جوارحه بذلك المغناطيس القومي إذ " ارتبطت بالنحايا النفسية و اتصلت بصور صنعتها مخيلة شاعر أبدع"7 برء آصرة تعلّقت بالجوانب التاريخية للجزائر المكافحة حقبا كانت مدعاة للفخر و الاعتزاز بالنسبة له تاريخ حافل ببطولات رجال أخذتهم العزّة على وطنهم ليقضوا نحبهم أبطالا لم يسمح لهم شموخهم ترك دخلاء تطأ أقدامهم تراب الوطن الطاهر بغية مصادرته، فدرويش شحن أبياته بجرعات شعوبية تجذرت شريان قصيده، فحمل على كاهله همّها و كأنها قضيته البكر الوحيد الأمر الذي دلّ على مدى تكتل البلدان العربية و التحامها داخل جسد واحد رافعة شعار القومية في لهجة لا مبالية أقامت دولة إسفلتها شعر

سئمت سيل دماء و دموع طال أمدها، فدرويش أراد لملمة شتات العرب و انكساراته ليلتئم مجددا تحت سماء واحد عن طريق " محاولة تنقيبية وغلت إلى ذلك السرداب اللغوي الغيهب بحثا عن قطر ندى فيه شيء من الأمل " 8

المكان من وجهة نظر درويشية هوس لا يود أن يمضي في حال سبيله يرمقه في كلّ التفاتة في كلّ ومضة بعين خيال ما بارحت قطّ مكانا كحرز الأم في الحنوّ رافقه كظلّه أينما حلّ و ارتحل بوجود شاعرية خرجت عن صمتها لتلوّح في حضرة الأبيات مكانا ناطقا خادن الصليل بعد جولة كان له فيها نصيب من الإعياء بسبب التراكم الوجومي المضني، فالقصيدة ها هنا قررت لمّ شمل المكانات في جلسة بوح شعرية فاهت إحاطة و احتواء:

"فالمُدن رَائحة

عَكا رائحةُ اليودِ البحرِي و البهارات

حيْفا رائحةُ الصنوبر و الشَراشف المُجعلكة

مُوسكو رائحةُ الفُودكا على الثلج

القاهرة رائحةُ المانجُو و الزنجبيل

بيروت رائحةُ الشَمس و البَحر و الدُّخان و الليمُون

باريس رائحةُ الخبزِ الطازج و الأجبان و مُشتقات الفتنة

دمشق رائحةُ الياسمين و الفواكِه المُجفّفة

تُونس رائحةُ مسكِ الليل و المِلح

الرباط رائحةُ الحِناء و البُخور و العسل

و كلُّ مدينةٍ لا تعرفُ من رائحتها لا يُعوَّل على ذِكراها

و للمنافي رائحةٌ مشتركة هي رائحةُ الحنين إلى ما عَداها

رائحةٌ تتذكرُ رائحة أخرى رائحةٌ متقطعة الأنفاسِ

عاطفيةٌ تقودك كخارطةٍ سِياحية كثيرة الاستعمال

إلى رائحةِ المكان الأوّل

الرائحة ذاكرةٌ و غروبُ شمس

و الغروبُ هنا توبيخٌ للمكانِ الجميل"9

هي رائعة من أحد إلماعات نصوص درويش الشعرية تصاعدت فيها حدّة المكان إلى زخم ما بعده زخم فاشتدت سبل القصيد مدنا في لقاء ميمون أشعل فتيل الذكريات في لمح البصر مدن تشمّ رائحتها العابرة و الراسخة تهبّ عليك كنسيم عليل عبّر عن مختلجاته، و رائحة أماكن تأخذك في رحلة هروب سامية تجاوزت حدود المتعة الصادقة إلى ما عداها تأخذك من حاضر تنامى فيه الشوق و التوق إلى ماض استحالة فيئته أمر حتمي لا محالة، ماض سلف و ترسخ يمكن استرجاعه باستحضار افتراضي قادنا إليه حنين مفرط لأيام مضت و انقضت يسمى في جلسات الأدب بالحضور الغيابي بحضور ذكريات ماضية استقر وجودها يصادفها الشاعر بعين خياله أينما توجّه يراها في حاضر استقر جثمانه في زمن ماض عثر فيه على عمر الزهور و مرحلة طفولة باسمة الثغر جميلة المحيّا، مرحلة غدت هوسا يلازم حيّز تفكيره أينما كان ودّ لو تعود لمرة لازال صوت ندائها البعيد بعد السنين يتردّد صداه و يلاحقه أينما التفت، فترة طغى حضورها و بلغ ذروته في حضرة الغياب الراهن المرغم علما أنّ " المكان ملمح تبدعه الجهة المستقبلة من وحي خيالها "10 فبالعودة إلى النص مجددا نمعن برهة و نستشعر أمدا أنّ الرائحة في حد ذاتها ملاذ للشاعر و سمت يميز مدينة عن الأخرى، فلعكا رائحة و لحيفا رائحة أخرى مغايرة تماما وأريج تتخذه معبرا يقودك من فضاء لآخر و من زمن لزمن كي لا تتخبّط في متاهات ذكريات بترت فيها الآصرة فلا مكان بدون ريّا تدلك صوب بوابة الذاكرة .

يقول محمود درويش:

"المكانُ الرائحة

قهوةٌ تفتحُ شباكاً

غموضُ المرأة الأُولى

أبٌ علّق بحراً فوق الحائِط

المكانُ الشهوات الجارحة

المكان المرضُ الأوّل ...

أمٌ تعصرُ الغيمة كي تغسل ثوباً .والمكان

هو ما كانَ و ما يمنعنِي الآنَ من اللهو"11

و من هنا استحوذ المكان على المقطع برمته و أعاد الكرة أكثر من المرة فورد ذكره بشكل مكثف لأنّه " منفذ إلى ما وراء الماديات لحيّز تفاعلي وثّق صلته بالشاعر بفعل خيال أطلق العنان لنفسه انطلاقا من تجارب واقعية خلّفت آثارا نفسية"12 فشكّل بعدا يلتقي فيه الشجن بالحدث في بؤرة تخطّى فيها المكان أفق مكانه و تطلّب أنيسا تأمّل ثم تدبّر سرّه و طويته، و هاهو درويش يتغمّد المكان قصيده و يسكنه بيتا تلو الآخر و يدقق في وصف تفاصيله الصغيرة و حيثياته الجزئية، فبالمكان يكون للبدايات نهايات وللتواريخ مكامن و للأزمنة أزقة، فبنى الشاعر تصوّرات له حملت على عاتقها بساطة الحياة بشهوتها العابرة و نشوتها الملحة بمعانيها و مراميها حياة تذرف أحداثا تعالى وقعها و تنامى مشهدها حاملا بين دفتيه عناصر جزّأتها الذاكرة إربا إربا عادت بالزمن إلى فضاء أصيل تعلّقت ذات الشاعر به في آن تسيّد فيه الغياب و سيطر فيه أكثر استحضار لمكان تسنّم جثمان جوف مرهف، و لطالما حمل المكان في جعبته من المفهوم الدرويشي رؤية خرجت عن التصوّر المادي كالرائحة، النرجس، التاريخ، و تصوّر حاصرته المحسوسات من كل حدب و صوب كالشباك، الحائط، الأرض في معترك مكثّف الدلالات برزت فيه أطراف ثنائية تداخلت تحت مسمى الجدل العكسي التجاوزي تتصل فيه الحقيقية بالخيال والواقع بالذكريات و الوجود بالعدم " لخلق جوّ يمتزج فيه حسّ الصور الشعرية برواء الأشياء"13 فالشاعر صمّم من كلّ هذا رسم للحيّز مكوّنات نددت بتمسكها الأزلي بكلّها المكان ووشمت على ميسمها بنيات لا حصر لها شطبت فلسفة الإيصاد قسرا ليخلف مقامها ولي عهد شقّ العصا و أردف درب المنن بأثّ الدلالات و كثّ المعاني التي تحمل في حوزتها أبعاد احتد صليلها ضاربا عرض القصيد بصور شرّعت الباب عن طرفه اليمين و حرفه الشمال لغشيان الوفد اللامتناهي.

أردف الشاعر مسيرة سخاء مضامين آلفت المكان و والفت فلسطين على وجه الخصوص في استدعاء نزوع قومي توّاق وكّد على سرمدية الفضاء المكاني في ثمرة شعرية وجودية لاقى فيها بلاء الفناء حتفه ليقع رهينة بقاء مكين أقرّه تعهد فطري لم يلبث أن برح عن ولاء لحيّز فلسطين تمطا شفا الأزلية:

"على هذِه الأرض ما يستحقُّ الحياة نهايةُ أيلول امرأة تتركُ

الأربعينَ بكاملِ مشمشِها سعادةُ الشمسِ في السجن غيمٌ يقلّد

سرباً من الكائنات هتافاتُ شعب لمن يصعدونَ إلى حتفِهم

باسمين و خوفُ الطغاةِ من الأُغنيات

على هذه الأرضِ ما يستحقُّ الحياة على هذه الأرضِ سيّدة

الأرضِ أمُّ البدايات أمُّ النهايات كانت تسمّى فلسطين صارت

فلسطين سيّدتي أستحقُّ لأنك سيّدتي أستحقُّ الحياة"14

اقترن المكان بدهماء التجارب الشعرية لأنه وجد فيها ذلك المكتنف الدافئ الأمر نفسه في الأسطر أعلاه الطافحة باستحضار الملاذ الترياق فلسطين في جلسة بوح نتأ فيها الثغر باسما تحت تبرم آسن لحظتها تمّ التقاط صورة لسيّدة الأرض المقدسة التي تبدأ فيها أشياء و تنتهي أشياء لأنها " الكيان الذي لا يحدث شيء بدونه "15 مكان بمكنته أن يكون الانتماء و الكينونة و الوجود لهذا المبرر ردّد الشاعر ذكره فصات فلسطين لأن إحساس الالتزام المطلق اعتراه و شعور تشبث بالوطن في ومضة تسامر فيها التوق و الشوق كما عناق بين شخص و آخر و كما لقاء الأب بشبله بعد سنين بعد عجاف في أون اعتلى فيه هرمون السيروتونين بالغا شعفته خامره آناء السمر و أطراف اللياح، فبالعودة إلى النص نجد

توجه المقلة الشعرية بشيء من الحدب و الترب صوب حال المهجرين أيام الصرد و القرس في التقاطة صريحة أسفرت عن حجم العنت و الضنك ريث مراودة كابوس العراء فصل الشتاء، بينما نلمح الشاعر في موضع آخر من سياق قصيده استدعاء سيّدة جاوزت سنّ الأربعين لدلالة على فترة استدمار تعدت الأربعين عاما في عصر الحيف و العسف بتاريخ 1948 و الذي امّدح إلى أجل غير مسمى علما أن سنة إصدار القصيدة كان سنة 1986 هي الأخرى بلغت كهولتها بتجاوزها سن الأربعين، فصوّر درويش هتافات تعالى وقعا ضاربة الدنيا و ما عليها في محفل لا مأتم يوم يطرق الفوات المباغتة باب أبناء المقرّ المقدس ليكون طريح الحياة ملاك السماء زف عريسا طاهرا نقيا يحمل شمعدان الشهادة يمينه، و ما أعظمها من شهادة فرّ فيها جنس الورى العفيف من جحيم الأرض إلى نعيم الفردوس .

نتائج البحث:

_لطالما ارتبط المكان بجذور ماض سلف لذا شاءت ذات الشاعر محمود درويش أوبته افتراضيا بذلك الاستحضار الغيابي لمشاهد مضت ودّ رؤيتها عن كثب بذريعة مخيلة وجهت نظرها صوب ذاكرة لربما تخمد أوار الصبوة و لو بالنزر الضئيل .

_صاحب المكان مقلة الشاعر أينما حلّ و ارتحل لأنه أضاء دهمة و دجنة طال أمدها بطريقة استنطاق كبت هجد أونا فسيح قصيد خرج لتوه من زنزانة كان أسير حصارها .

_تجاوز المكان مساحته الجغرافية المحدودة إلى تحليق مطلق لا شأو له حمل وسام حرية انصرفت نحو عالم تنامى فيه الخيال .

_حظي المكان باهتمام الشاعر و عنايته البالغة كيف لا و هو الانتماء و الهوية و الملاذ الوحيد قبل كلّ شيء ثوى طيّ مهجته فنلمحه في جسد تجاربه بانتداح شطب منطق المغاليق.

المصادر:

1- محمود درويش، الخروج من الساحل المتوسط، aldiwan.net

2- عادل الأسطة، مدخل لقراءة موضوع المدينة في شعر درويش،2007 www.google.ae

3- محمود درويش، ديوان محمود درويش، دار العودة، بيروت-لبنان، ط11، 1982، ص398.

4- محمود درويش، طوق الحمامة الدمشقي، aldiwan.net

5- ينظر: عبد الملك مرتاض، السبع المعلقات قراءة أنثروبولوجية سيميائية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق-سورية، ص70.

6- محمود درويش، عن الأمنيات، poetsgate.com

7- ينظر: حسن محمد الربابعة، المكان ظاهرة في ديوان أغنيات للوطن المركز القومي، الأردن، ط1 ، 1999، ص12.

8- ينظر: عبدة وازن، الغريب يقع على نفسه قراءة في أعماله الجديدة، رياض الريس، لبنان، ط1، 2006، ص3.

9- محمود درويش، goodreads.com

10- ينظر: فيصل غازي، النعيمي العلامة و الرواية دراسة سيميائية في ثلاثية أرض السواد لعبد الرحمن منيف، دار مجدلاوي، عمان-الأردن، ط1، 2009، ص112.

11- محمود درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، دار الحرية، بغداد-العراق، ط2، 2000، ص413.

12- ينظر: ياسين نصير، إشكالية المكان في النص الأدبي دراسة نقدية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد-العراق، ط1، 1986، ص8.

13- إبراهيم نمر موسى، ذاكرة المكان و تجلياتها في الشعر الفلسطيني المعاصر، عالم الفكر، 2007، ص73.

14- أوس داوود يعقوب، محمود درويش مختارات شعرية و نثرية، دار صفحات للدراسات و النشر، دمشق-سورية، ط2، 2011، ص181.

15- حسين المنشاوي، الرواية و المكان دراسة تاريخية، دار المعارف، القاهرة-مصر، 2004، ص5.